



نذر التصعيد تتلبد في سماء سوريا

عريب الرنتاوي، 2018-04-25 -

تقسيم أم دسترة التقاسم؟

نذر التصعيد تتلبد في سماء سوريا، مع أن زرققتها في الربيع، تخطف الأبصار والألباب لفرط جمالها وانسجامها... والبلد المنكوب بحروبه الداخلية، وحروب الآخرين فيه وعليه، ما زال بعيداً عن الاستقرار واسترداد الأنفاس... وثمة اتجاهات ثلاثة لتطور الأحداث في الأشهر القادمة، تدعو جميعها للقلق والتحسب:

(1) تزايد أحاديث تقسيم سوريا، بعد أن استقر اللاعبون لبرهة من الزمن، حول فكرة "التقاسم"، تقاسم النفوذ الإقليمي والدولي...

(2) انهيار مناطق خفض التصعيد، وعودة "الجبهة الجنوبية" لتصدر نشرات الأخبار وعناوين الصحف، بوصفها مشروع منطقة "حكم ذاتي" وليس لكونها "منطقة خفض تصعيد"...

(3) تفاقم نذر مواجهة مباشرة بين إيران وإسرائيل، حتى أن السفير الأمريكي السابق لدى سوريا، توقع في آخر مقال له، أن تكون سوريا على موعد مع "صيف ساخن"، منطلقاً من فرضية أن الجدل لا يدور حول ما إذا كانت المواجهة ستقع بين إيران وإسرائيل في سوريا وفوقها، بل متى ستقع وأية أشكال ستتخذ، وأية مديات ستصل؟... وسنعالج في هذه "الثلاثية" كل واحد من هذه الاتجاهات المقلقة، بدءاً بملف "التقاسم" و"التقسيم".

أشعلت تصريحات سيرجي ريبكوف، نائب وزير الخارجية الروسية، الجدل السياسي والإعلامي، إقليمياً ودولياً حول مستقبل سوريا، الرجل شكك في إمكانية في الاحتفاظ بوحدة سوريا مستقبلاً، وبرغم "التوضيح" الذي صدر عن الخارجية الروسية فيما بعد، إلا أن تصريحات لافروف التي حذر فيها من خطط غربية تستهدف تقسيم سوريا، والاحتفاظ بوجود قوات أجنبية (إلى الأبد) على أرضها، أدرجت "التوضيح" في باب لزوم ما لا يلزم، وعمقت المخاوف على مستقبل سوريا، بدل أن تبدها.

روسيا كشفت عن "جزء" مما لديها من تقديرات وتكهنات، أو تحذيرات، حين قالت أن مشروعاً للحكم الذاتي يعد للمنطقة الجنوبية، من القنيطرة وحتى السويداء، تكون درعا عاصمة لهذا الإقليم، وتوقعت أن تشهد هذه المنطقة، تصعيداً خطيراً بوجود معلومات تتحدث عن حشد اثني عشر ألفاً من المقاتلين لتنفيذ "اختراقات" واسعة على الجبهة الجنوبية... وروسيا، لم تشر حكاية "الانسحاب الأمريكي الوشيك جداً من سوريا"، بل هي



حذرت بعد تصريحات ترامب تلك، من أن البنتاغون يحشد مزيداً من القوى في شمال وشرق سوريا، وأن واشنطن تخطط لوجود مستدام في هذه المنطقة... وحتى بعد حديث ترامب عن استبدال القوة الأمريكية بقوة عربية مشتركة، لم تخفت المخاوف الروسية، وظل الحديث عن "فصل" المنطقة بقيادة "قسد" ودعم عربي ودولي كثيف لهذا الجيب الانفصالي، هو سيد الموقف في موسكو.

ما لا تثيره روسيا كثيراً في الإعلام، هو مصير المنطقة الواسعة في الشمال الغربي لسوريا، والخاضعة لسيطرة الجيش التركي والمليشيات التابعة له... طلب لافروف ذات مرة، إعادة عفرين إلى الدولة السورية، وردّ عليه أردوغان بقسوة، ومن يومها لم نسمع كثيراً من المواقف الروسية حول هذا الموضوع، مخافة أن يتسبب الأمر في استشارة غضب الرئيس التركي، المعروف بشخصيته الانفعالية ولسانه السليط.

أحاديث التقسيم لا تصدر باللغة الروسية فحسب، بل باتت تتردد بلغات أخرى عديدة، الأمر الذي يطرح جملة من الأسئلة والتساؤلات: هل بلغ الانسداد السياسي في سوريا، حد تشجيع كل فريق إقليمي أو دولي وازن لاقتطاع حصته التي يتوفر عليها الآن، وربما بعد توسيعها قليلاً أو كثيراً، توطئة لتحويل بلاد الشام، إلى إمارات متنازعة، أم أن هؤلاء اللاعبين الكبار، إنما يسربون خططهم عن قصد، وبجدها الأعلى، على أمل الحصول على ما هو دون ذلك: الاعتراف بتقاسم النفوذ وبحصّة كل فريق من الأرض والشعب السوريين، من دون منازع؟

هل التحذيرات الروسية مستندة إلى معلومات حقيقية وموثوقة، أم أن موسكو ترفع عقيرتها بالتحذير، لتمرير ما كانت سباقاً في طرحه في (أستانا 2): دستور فيدرالي لسوريا، ورُفض في حينه من النظام والمعارضة، وفي توافق نادر بينهما؟

الفيدرالية ليست نظاماً مردولاً حين تكون التنمية والجغرافية والديموغرافيا، هي محددات توزيع الدولة إلى أقاليم، بيد أنها قد تصبح بوابة للتقسيم، ومدخلاً لرسم خرائط جديدة، إن كانت مفصلة على مقاس القوى الإقليمية والدولية الفاعلة في سوريا، فهل هذا ما ستنتهي إليه الأزمة السورية؟

تقسيم سوريا، بوابة تقسيم المنطقة، وشارة البدء لتفعيل "مبدأ الدومينو"، وهو أمر سيرتد على العراق وتركيا أولاً، وقد ينسحب على إيران والخليج، فهل هذا هو المطلوب، أم أننا بإزاء "تكتيك" روسي/دولي ضاغط، يهدف إلى "دسترة" تقاسم النفوذ؟... سؤال يرسم الأيام المقبلة.

خفض التصعيد... نعم، حكم ذاتي... لا

لم تتوقف التكهّنات حول قرب اشتعال الجبهة الجنوبية لسوريا، وانهيار منطقة خفض التصعيد الجنوبية، عن



التدفق، لا قبل معارك دوما والغوطة الشرقية، وبالأخص بعدها... على أن "السياق العام" لمعارك الجنوب المنتظرة، بدأ يأخذ منحى استراتيجياً مغايراً في الأيام الأخيرة، مع تزايد الحديث عن مشاريع "تقسيم" سوريا أو "دسترة" تقاسم النفوذ على أرضها وشعبها، حتى أن موسكو كشفت مؤخراً عن مخطط لتحويل المنطقة برمتها، إلى مشروع "حكم ذاتي" يشتمل على المحافظات الجنوبية الثلاث، عاصمته درعا، وطرفاه القنيطرة غرباً والسويداء شرقاً.

في الجنوب خليط غير متجانس من القوى والفصائل: جبهة النصرة، أشدها قوة وعوداً، وقوامها ما بين 1400 - 1500 مقاتل مجرب ومسلح ومدجج بثقافة "الموت"... "داعش" في حوض اليرموك، تحت راية "خالد بن الوليد" ولديه ما بين 700-800 مقاتل مجرب وأسلحة من عيارات ثقيلة، ولا يبعد عن حدود الأردن سوى مئات الأمتار فحسب... وفصائل ما يسمى "الجيش الحر"، ويمكن القول أنها تتوفر على 12 - 15 مقاتل، حسن التسليح والتدريب، يفتقر للجاهزية القتالية، ومرتبطة بمرجعيات إقليمية ودولية، ليست على قلب رجل واحد باستمرار... وفي شرق السويداء، هناك بضعة آلاف من جيش العشائر وغيره، وهي قوات "صديقة للأردن" عموماً، ويجري توجيهها لمنع تسرب داعش إلى الجنوب، لتهديد الأمن الوطني الأردني.

إقليمياً ودولياً، ثمة ثلاث دول لها نفوذ وتأثير وازنين في هذه المنطقة: الولايات المتحدة، التي تحتفظ بوجود كثيف في قاعدة "التنف" ولديها ميليشيات، تمولها وتدريبها وتسليحها... إسرائيل، التي تسعى لإنشاء شريط حدودي عميل، غير مستفيدة من تجربة الفشل الذريع لأول جيب عميل في جنوب لبنان، وعلاقتها بالنصرة لم تعد سرّاً أبداً... والأردن، الذي يعتمد "نظرية الوسائد" الأمنية التي يتكئ إليها لتحسين حدوده الشمالية، التي لا يرغب برؤية الإرهابيين والمليشيات المذهبية على مقربة منها.

الأردن أدار ملف الجنوب السوري، بقدر كبير من النجاح، وقدر صغير من التدخل المباشر، ونجح في توظيف علاقاته الوطيدة مع كل من موسكو وواشنطن لخدمة أهدافه وأولوياته هناك... لكن بلوغ التوتر بين الدولتين العظميين، حداً غير مسبوق، يجعل مهمة الأردن صعبة للغاية... وأحاديث لافروف عن مشروع "حكم ذاتي" في جنوب سوريا، يلقي على الأردن أعباءً كبيرة، لا يرغب في التورط في دهاليزها.

منذ البدء، حرص الأردن على إخراج منطقة خفض التصعيد الجنوبية من مسار أستانا، ووفر لها إطاراً ثلاثياً مع الولايات المتحدة وروسيا، فالأردن لا يرغب في رؤية إيران ومليشياتها على حدوده الشمالية، وهو لا يأنس كثيراً للدور التركي في سوريا، خصوصاً لجهة اعتماده على أدوات "إسلاموية" لا يمكن إدراج أي منها في عداد "أصدقاء الأردن"، والأردن حرص على تمييز مشروعه الدفاعي، الوقائي، الاستباقي، في الجنوب السوري، عن المشروع الإسرائيلي التدخل، ذي الأجندات "الطموحة" و"المشبوحة"، من إطالة أمد الحرب، إلى تصفية حزب



الله إلى محاربة إيران وطردها من سوريا، وليس من الجنوب فحسب.

اليوم، تبدو معادلات التهدة والتصعيد في الجنوب في طريقها للتغيير، وهذا يملي على الأردن إحداث تغيير في مقارباته وحساباته... فلا يمكن للأردن أن يكون جزءاً من مشروع لتقسيم سوريا، وبأي حال من الأحوال، لا من منظور أخلاقي وقومي فحسب، بل ومن منظور مصالحه الوطنية كذلك... والأردن، ليس بوسعها أن يترك أي التباس من أي نوع، بأن مشروعه في جنوب سوريا، يلتقي مع المشروع الإسرائيلي، فتلكم الطامة الكبرى، على الأردن قبل أن تكون على سوريا... والأردن، ليس بوسعها التعويل على استمرار الحد الأدنى من التفاهات الروسية - الأمريكية، فهذا الاحتمال قد يقع وقد يصبح مستبعداً تماماً، وعمان لا تتحكم بهذه المسألة... خيارات الأردن في جنوب سوريا، تزداد صعوبة، والمنطقة تقترب بسرعة من لحظة مواجهة كبرى، قد تكون لها تداعيات خطيرة على سلامة الحدود واستقرارها وأمن مدنه الشمالية.

أعود فأذكر بما كنت طرحته في هذه الزاوية قبيل "العدوان الثلاثي" على سوريا، من أن من مصلحة الأردن "التفكير من خارج من الصندوق" وتوظيف نفوذه على بعض الفصائل الجنوبية، وتفعيل دوره كوسيط لإتمام مصالحت محلية بين النظام والمعارضات، ورفع مستوى وسوية التنسيق مع دمشق، ومحاولة تفادي المواجهة الكبرى، والتوطئة لفتح الحدود الدولية، واستئناف حركة البضائع والأفراد والخدمات، من سوريا وإليها، وعبرها إلى لبنان وموانئ البحر المتوسط.

إيران وإسرائيل: من حروب الوكالة إلى حرب الأصالة

تعهدت إسرائيل، بمستويها الأمني والعسكري، بالعمل على منع إيران من الاحتفاظ بنفوذ وازن في سوريا، وهي منذ بداية الأزمة السورية، وضعت هذا الهدف، إلى جانب منع حزب الله من الحصول على سلاح "كاسر للتوازن"، في صدارة أهدافها وأولوياتها السورية.

وفي المقابل، تعهدت إيران، وبمستوياتها الثلاث: الأمني والسياسي و"الإيديولوجي"، والأخير هو الأهم ربما، بتدمير إسرائيل في أي حرب قادمة، وهي وأن أكدت في مرات عدة، بأنها لن تكون بادئة في هذه الحرب، إلا أنها بعد الضربة العسكرية الإسرائيلية على مطار "التيفور"، أكدت بما يدع مجالاً للشك أو التراجع، بأنها سترد الصاع صاعاً أو ربما صاعين لـ "الشیطان الأصغر".

عملية "التيفور" حدث مفصلي في تاريخ الأزمة السورية، ما قبله ليس كما بعده... هكذا تحدث السيد حسن نصرالله، كشخص مطلع على ما يدور في أروقة صنع القرار الإيراني، وليس كمراقب أو زعيم لحزب لبناني بعيد عن طهران... وجنرالات الحرس الثوري، لم يتركوا مناسبة تمر، من دون أن يؤكدوا أن ردهم على مقتل



الإيرانيين في "التيفور" آت لا ريب فيه.

حتى أن السفير الأمريكي السابق في سوريا روبرت فورد، كتب في آخر مقالة له، أن المواجهة بين إيران وإسرائيل، آتية، وأن الجدل يدور حول توقيتها وكيفيةها ومدياتها، وليس حول ما إذا كانت ستحصل أم لا... وفي السجال الدائر حول أول "حرب أصالة" بين البلدين، بدأ المراقبون يقترحون توقيتات محتملة للضربة الإيرانية المقبلة، بعد أن تأكد لإيران، أن خبراءها وضباطها لم يقتلوا في "التيفور" عن طريق الخطأ، وأنهم كانوا مستهدفين بشكل خاص، وأن إسرائيل كانت تعتقد إلى الجنرال قاسم سليمان، ربما يكون من بينهم.

في مسألة توقيت الضربة الإيرانية، نستبعد كثيراً أن تفعلها إيران قبل الانتخابات اللبنانية المقررة في السادس من أيار/مايو المقبل، وهي الانتخابات التي يوليها حليف إيران القومي في لبنان والمنطقة: حزب الله، أهمية خاص، لـ"تحسين سلاحه وتجديد شرعيته"... ونرجح أن تنتظر طهران، إلى ما بعد الثاني عشر من الشهر ذاته، وهي نهاية المهلة التي سيقدر دونالد ترامب بعدها، ما إذا كان سيحافظ على الاتفاق النووي مع إيران أم سينسحب منه.

وفي مسألة شكل الضربة وحجمها ومداهها، فإنه يصعب التكهّن بما يدور في خلد القيادات الأمنية والعسكرية الإيرانية، فهي قد ترد من سوريا، في أول مواجهة جوية مع إسرائيل، إن باستهداف طائراتها بشكل كثيف، حتى وهي تطير في سماء لبنان، أو بإرسال طائرات مسيرة، من دون طيار، وربما تختار تنفيذ عملية في العمق الإسرائيلي من خلال أي من الفصائل الحليفة لها، وربما تلجأ إلى قصف بصواريخ أرض - أرض، عند أول اعتداء إسرائيلي على سوريا، وهي اعتداءات دورية ومتكررة على أية حال، ولن يطول انتظارنا قبل أن نرى المزيد منها وقد جرت مقارفته ضد أهداف سورية أو على الأرض السورية.

قد تلجأ إسرائيل إلى توسيع دائرة استهدافاتها، وتدخل المنطقة برمتها، في دوامة الأفعال وردود الأفعال العسكرية، وقد تجد الأطراف، غير الراغبة في الانزلاق إلى قعر الهاوية، صعوبة في البقاء على حافتها، أو الابتعاد عن هذه الحافة، خطوة أو خطوتين للوراء... إيران، كما تقول التقارير، تكثف حضورها العسكري في سوريا، وإسرائيل، كما يقول إعلامها، في أعلى درجات الاستنفار والجاهزية لمواجهة السيناريو الأسوأ، وقد يجد البلدان، صعوبة فائقة في تفادي مواجهة أسوأ الخيارات.

وأسوأ السيناريوهات هنا، هو ألا تظل الحرب بين الجانبين، محصورة بالجغرافيا والأجواء السورية واللبنانية، إذ ربما تقوم إسرائيل بضرب أهداف في العمق الإيراني، رداً على عملية إيرانية مؤلمة، ما يسقط الحرج عن إيران، التي هدد قاداتها العسكريون بإمطار كل شبر من أراضيها بالصواريخ الإيرانية... هو سيناريو شديد



الغربة لحرب بين دولتين تفصلهما ألاف الكيلومترات، بيد أنه سيناريو ليس مستبعداً تماماً، وقد تجد المنطقة نفسها، تتجه صوبه، بتسارع مذهل، وبدفع وتشجيع من إدارة متطرفة في واشنطن، وقيادات إقليمية، تستعجل الحرب على إيران، وتتطلع لإزالتها عن خريطة الإقليم.

.....
* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبأ المعلوماتية